ذلك، وأما الكذب الذي به يحتجون على الله فلا، ولا حتى سؤلهم الكذب بسؤالهم الخاوي حين يسألون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾[1].

ذلك بالنسبة للمشركين الأُصلاء الرسميين، وأما الموحدون الذين تخلفوا عن شرعة التوحيد تخلفاً مَّا عقيدياً أو عملياً، فقد تكون لمقالتهم صحة مّا إذ لم يكونوا وثنيين، ولكنهم - أيضاً - يُعتبرون من المشركين مهما بان بينهم بون.

والشرك المتفرع يعم الشرك الكتابي، والتجسيم والمشاقة في الرسالة الربانية أو الخلافة المعصومة إلى المرسومة بالأهواء والآراء[2].

= ليس في موطن واحد وهي في مواطن في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة فجمع الله الخلائق في ذلك اليوم في موطن يتعارفون فيه فيكلم بعضهم بعضاً ويستغفر بعضهم بعضاً من الذين بدت منهم المعاصي في دار الدنيا وتعاونوا على الظلم والعدوان في دار الدنيا والمستكبرون منهم والمستضعفون يلعن بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم ببعض ثم يجتمعون في موطن يفر بعضهم من بعض وذلك قوله: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦﴾ [عبس: ٣٤-٣٦] إذا تعاونوا على الظلم والعدوان في دار الدنيا ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧] ثم يجتمعون في موطن يبكون فيه فلو أن تلك الأصوات مدّت لأهل الدنيا لأذهلت جميع الخلائق عن معايشهم وانصدعت قلوبهم إلّا ما شاء الله فلا يزالون يبكون حتى يبكون الدم ثم يجتمعون في موطن فيستنطقون فيه فيقولون والله ربنا ما كنا مشركين ولا يقرون بما عملوا فيختم على أفواههم ويستنطق الأيدي والأرجل والجلود فتنطق فتشهد بكلِّ معصية كانت منهم ثم يرفع عن ألسنتهم الختم فيقولون لجلودهم وأيديهم وأرجلهم لِمَ شهدتم علينا؟ فتقول: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فُصّلَت: ٢١] ثم يجتمعون في موطن يستنطق فيه جميع الخلائق فلا يتكلم أحد إلّا من أذن له الرحمن وقال صواباً ويجتمعون في موطن يختصمون فيه ويُدان الخلائق من بعض وهو القول وذلك كله قبل الحساب فإذا أخذ بالحساب شغل كلِّ امرئ بما لديه نسأل الله بركة ذلك اليوم.

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٠٧، ١٠٨.

(٢) نور الثقلين ١: ٧٠٨ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل=

وترى كيف أصبح كذبهم على أنفسهم هناك فتنتهم؟ لأن الفتنة هو إخلاص الحق عن شوب الباطل كما تفتتن الذهب الخليط لتصبح من الخليص، فهم لم يكن لهم إخلاص لأنفسهم في ذلك الموقف الحاسم إلّا كذبهم على أنفسهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فالحقيقة التي تجلت عنها وتبلورت فيها ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ هي تخليهم عن ماضي شركهم كلّه وإقرارهم بربوبية الله الوحيدة غير الوهيدة، ولكن قد فات الأوان!.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

هذه مع ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[1] هما صفحتان متقابلتان من صحيفتي الأولى والأخرى، يرتسم في أولاهما العناد والإعراض وفي أُخراها الندم والحسرة، يرسمها القرآن الآن، خطاباً للفطر الجاسية هزّاً لها تساقطاً للركام الذي ران عليها، علَّ مغاليقها الصّلدة تنفتح وتفيء إلى تدبر هذا القرآن قبل فوات الأوان.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ دون تدبر وتذكر، فإن «إلى» هنا لامحة إلى ظاهر الاستماع دون واقعة، حيث الاستماع الحق متعدٍّ بنفسه كـ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾

= يذكر فيه أحوال يوم القيامة وفيه: ثم يجتمعون في مواطن أُخر فيستنطقون فيه فيقولون: والله ربنا ما كنا مشركين، وهؤلاء خاصة هم المقرون في دار الدنيا بالتوحيد فلم ينفعهم إيمانهم بالله تعالى لمخالفتهم رسله وشكهم فيما أتوا به عن ربهم ونقضهم عهدهم في أوصيائهم واستبدالهم الذي هو أدنى بالذي هو خير فكذبهم الله فيما انتحلوه من الإيمان بقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام: ٢٤].
وفيه عن تفسير القمي وروضة الكافي عن الصادقين عليهما السلام في الآية قال: يعنون بولاية علي عليه السلام.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٧.

ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴿١٨﴾﴾[١] و﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[٢].

فالمستمع القول له أذن واعية صاغية، والمستمع «إلى» هو من الصُّمّ عن استماع الحق المبين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾[٣] ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾﴾[٤].

وهنا أكنة القلوب ألّا تعي القرآن، ووقر الآذان ألّا تسمع مهما استمعت، هما من الجزاء الوفاق يوم الدنيا ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٥] استدراجاً فيما هم درجوا فيه من ضلال، ضلالاً على ضلال.

فالأكنة هي الأغلفة النفسية التي تحول دون تفتح القلوب المقلوبة بما قلبوها، والوقر هو الصم الذي يحول دون آذانهم أن تؤدي واجب السمع إنسانياً.

فهذه نماذج شريرة من البشرية المعاندة التي ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾[٦].

فلما ترك هؤلاء الأوغاد المناكيد فقه قلوبهم وإبصار أعينهم وسمع آذانهم

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١٧، ١٨.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٩.
(٣) سورة يونس، الآية: ٤٢.
(٤) سورة الإسراء، الآيتان: ٤٦، ٤٧.
(٥) سورة الصف، الآية: ٥.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١].

أترى ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾[٢] اعتذار صادق بما ختم الله عليها فهم يحتجون؟ كلَّا وإنّهم محجوجون بما أجابهم الله ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

فلم تكن غُلف قلوبهم بدايةً من الله حتى يحتجوا، إنما هو لعن من الله بكفرهم أن أزاغ الله قلوبهم لما زاغوا.

ولأن ثالوث وقر الآذان وغشاوة الأعين وأكنة القلوب، سدت عليهم منافذ الدرك إنسانياً مهما أدركوا دركات الحيوانية النحسة، لذلك:

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ رؤية بالبصر أو بالبصيرة ﴿لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ لمكان مضاعف الوقر والكنّ والغشاوة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ كأبي جهل وأضرابه من آباء الجهالات ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

فهم لا يجيئونك مفتوحي الأعين والآذان والقلوب ليتدبروا ما تقوله من وحي ربك، ولكن ليجادلوك التماساً لأسباب الرد والتكذيب، والتحريف والتجديف، ومنها ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وأباطيلهم وخرافاتهم التي سطروها: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾[٤].

فمعالم السِّر في السماوات والأرض التي يحويها القرآن العظيم، فضلاً عن معالم الواقع العلن، تدل أصحاب السّر الرباني والعلن أن لن يكون

(١) سورة البقرة، الآية: ٧.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٨.
(٤) سورة الفرقان، الآيتان: ٥، ٦.

القرآن من منتوجات التعقلات والتفلسفات البشرية، فضلاً عن أساطير الأولين.

فقضية وحي القرآن هي من القضايا التي قياساتها معها، دون حاجة له إلى برهان سوى نفسه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1] ذلك!:

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿وَهُمْ﴾ أولاء المفترون على الله الكذب، المكذبون بآياته، الذين على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر، المفترون على القرآن أنه من أساطير الأولين، هؤلاء حين يستمعون إليك ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ مَن سواهم من المستضعفين وسواهم، كما وهم أنفسهم ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ ظلمات بعضها فوق بعض ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ بالمآل ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إذ يخيَّل إليهم أنّهم يهلكون المؤمنين به الصادقين، فهم - رغم أنفهم - ليسوا لينأوا عنه بنهيهم أو الضعفاء، فإنَّهم هم أنفسهم في ضلال، أو أنهم يهلكون القرآن بدعوته وداعيته، وليس القرآن ليهلك بما هم ينهون عنه وينأون عنه:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾[2].

وترى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ يحتمل النهي عن أذاه لتصدق الرواية المختلقة أنها

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥١، ٥٢.
(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٣٢، ٣٣.

نازلة في أبي طالب رحمه الله حيث كان ينهى المشركين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ويتباعد عما جاء به[١].

﴿وَهُمْ﴾ يعني - ككلّ - المشركين المفترين المكذبين الذين كانوا يؤذونه حياتَهم، ويتربصون به كلَّ دوائر السوء.

ثم و﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ كما ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ هما في مصب الذم والتنديد على سواء، كما ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ يهددهم بالهلاك بما ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٨ - أخرج جماعة عن ابن عباس في الآية قال: «نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين». . . وعن القاسم بن مخيمرة في الآية قال مثله. . ولا يصدق به، وعن عطاء ابن دينار في الآية قال مثله. . . وينأى عما جاء به من الهدى.
وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال: ينهون الناس عن محمد أن يؤمنوا به وينأون عنه يتباعدون عنه، ومثله عنه من طريق العوفي وعن محمد بن الحنفية وعن مجاهد وعن قتادة.
فالروايتان متعارضتان ولا تقبل الآية إلّا الثانية، والأولى معروضة عرض الحائط.
ذلك ولقد أجمع أئمة أهل البيت عليهم السلام على إيمان أبي طالب رحمه الله، وفيه روايات تبلغ حدَّ التواتر ومنها ما رواه ابن عمران أبا بكر جاء بأبيه أبي قحافة يوم الفتح إلى رسول الله ﷺ فقال: ألا تركت الشيخ فآتيه؟ وكان أعمى، فقال أبو بكر: أردت أن يأجره الله تعالى والذي بعثك بالحق لأنا كنت بإسلام أبي طالب أشد فرحاً مني بإسلام أبي ألتمس بذلك قرة عينك فقال ﷺ: صدقت.
وروى الطبري بإسناده أن رؤساء قريش لما رأوا ذب أبي طالب عن النبي ﷺ اجتمعوا عليه وقالوا: جئناك بفتى قريش جمالاً وجوداً وشهامة عمارة بن الوليد ندفعه إليك وتدفع إلينا ابن أخيك الذي فرق جماعتنا وسفه أحلامنا فنقلته فقال أبو طالب: ما أنصفتموني تعطونني ابنكم فأغذوه وأعطيكم ابني فتقتلونه بل فليأت كلّ منكم بولده فأقتله وقال:

منعنا الرسول رسول المليك ببيض تلألأ كلمع البروق
أذود وأحمي رسول المليك حماية حام عليه شفيق

وأقواله وأشعاره المصرحة بإيمانه كثيرة لا تحصى ومنها:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً نبياً كموسى خطّ في أوّل الكتب

ومنها:

ألا إن أحمد قد جاءهم بحق ولم يأتهم بالكذب

ومن ثم لم ينه عنه - فيما يختلقون من إضافة النأي عنه - إلّا أبو طالب وعوذاً بالله، فكيف يقول ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ولو أن ﴿وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ هم غير من ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ لتساقط النظم إلى أسفل دركات الركاكة، وماهية إلَّا قضية بغضهم لأبي طالب رحمه الله، لأنه أبو علي عليه السلام!.

وترى ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ تختص بهؤلاء المشركين، ولا تشمل معهم هؤلاء المسلمين! الذين ينهون عن القرآن باعتذار أنه لا يُفهم، وأن التدبر فيه لتفهمه تفسير له بالرأي، وكما هم ينأون عنه، فأصبحت الحوزات العلمية خلواً عن القرآن كأصل حيث يجب أن تتبناه كلّ الحوزات الإسلامية في كلٍّ الإسلاميات عقيدية وفقهية وفلسفية وسياسية أماهيه من حيوياتهم؟!.

وكلُّ نهي عن القرآن ونأي عنه - أياً كان ومن أيٍّ كان وأيان - قضيَّته هلاك الأنفس الناهية النائية، فالناهي عن القرآن والنائي عنه أيّاً كان هالك كما أن علومه حلوم هالكة حالكة.

وهنا المنهي عنه والمنتهى عنه هو القرآن وهو رسول القرآن، ولكن القرآن هو الأصل الخالد طول حياة التكليف منذ بزوغه إلى يوم الدين، فالنهي والنأي عنه، نهي ونأي عن الرسول، كما النهي عن الرسول والنأي عنه، نهي ونأي عن القرآن، والنهي عن القرآن أنحس من النهي عن رسول القرآن.

فقرآن محمد ومحمد القرآن هما اللذان يبنيان صرح الإسلام، فالمفروض أن تتبناهما الحوزات الإسلامية، فالقرآن إمام محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو أمامه، هما المحوران الأصيلان للأمة الاسلامية في قرونها دون فصال اللّهم إلّا فصالاً عن أصل الإسلام وأثافيِّه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

ذلك المشهد هناك خزياً واستخذاءً وانتداماً يقابل مشهد الإعراض هنا والجدال والنهي والنأي وأين مشهد من مشهد؟!.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا رسول الهدى ﴿إِذْ وُقِفُواْ﴾ هؤلاء الناهون عنه والناؤون عنه ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ التي أججوها على القرآن ورسالتك القرآنية، بروزا لملكوتها يوم الدين ﴿فَقَالُواْ﴾ لما رأوها متندمين متحسرين ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ إلى حياة التكليف ثم ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وترى ﴿وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ تعني وقوفهم عندها؟ وعبارته الصالحة «وقفوا عند النار»! أم وقوفهم في جوف النار؟ وعبارته ﴿وُقِفُواْ﴾ - أو - «ادخلوا في النار»! أم وقوفهم فوق النار؟ وعبارتهم عبارته! أم وقوفهم على حقيقة النار تعريفاً بها لهم عريفاً عريقاً دخلوها أو لمّا؟ وهو الصالح لعناية ﴿وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ مهما عنيت معه المعاني الأخرى جمعاً بين الوقوفات.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿بَلْ﴾ لا طائل تحت قول قائلهم ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ...﴾[1] ﴿بَلْ﴾ خلاف ما يدعون أنهم لم يكونوا مشركين، وخلاف ﴿مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ الموت من عبادتهم وأعمال دون ذلك ﴿بَلْ﴾ لا يريدون الرجوع إذ يعلمون من أنفسهم استمرارية الكفر، فإنما خوفهم من النار التي وقفوا عليها مُناهم ذلك التمني كاعتذار.

وجملته أنهم كانوا مفترين على الله مكذبين بآيات الله مهما كانوا يظهرون واجهة من الإيمان وآمن من أهل الإيمان، يخفون في زعمهم الكفر مظهرين أنه إيمان!.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٧.

ولأن الإخفاء هنا هو طليقه عارفين وغير عارفين، فمنه إخفاء النار التي كانوا يؤججونها يوم الدنيا وبصرهم عنها كليل، وهناك ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾[١] - ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[٢].

ومنه إخفاء الحق على المستضعفين وإظهاره مظهر الباطل فـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[٣] ومنه ما كان يخفيه المنافقون من باطن الكفر متظاهرين بالإيمان ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ﴾[٤] وعلى الجملة ﴿بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ﴾ من سيئات أو من الحقائق يوم الدنيا، وما كانوا يخفون يوم الدين من إشراكهم، وما كانوا يخفون من أعمالهم زعماً أنها لا تبقى، فإنه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ۖ وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾[٥] فقد تشمل ﴿يُخْفُونَ﴾ كلّ إخفاء شِرِّير عن أنفسهم أو غيرهم أم عن الله في زعمهم، فلا تخفى يومئذ خافية إذ تبدى السرائر.

﴿وَلَوْ رُدُّوا۟﴾ ومحال أن يُردوا إلى حياة التكليف ﴿لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ لا «إلى ما نهوا عنه» - فقط - من سيئات، بل لكان عودهم لما نهوا عنه حتى يستزيدوا من عنادهم، فللّام هنا دور حاسم لمتخيل إيمانهم وصالحاتهم، أن ردهم لا ينتج إلّا عودهم لهدف استزادة واستدامة ما نهوا عنه ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

---

(١) سورة ق، الآية: ٢٢.
(٢) سورة الجاثية، الآية: ٣٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

أجل «وإن الله ليعلم ما لو كان كيف هو كما يعلم ما كان وما يكون وما هو كائن فإنه بكلِّ شيءٌ عليم»[١].

وترى إذا كانت الرجعة إلى حياة التكليف مستحيلة - إذاً - فما هو دور الرجعة في دولة المهدي عليه السلام؟.

إن بين الرجعتين لبوناً شاسعاً، فالرجعة الكائنة هي قبل يوم القيامة، وهي ليست لاستدراك الطالحات بالصالحات التي أحيلت و﴿لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ وأما الصالحون من الراجعين فهي لهم حظوة ونصرة للقائم عليه السلام.

فالمنفي - كلمة واحدة - من الرجعة في حياة التكليف هي التي يظن الراجع أو يدعي بقوله: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُۚ﴾[٢] حيث الجواب ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[٣] - ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾[٤].

والمُثبت كما في لمحات أو تصريحات لآيات هو رجوع من محَّض الإيمان محضاً ومن محَّض الكفر محضاً، رجعة مفروضة، أو المتوسطين في الإيمان وهو رجعة بالاستدعاء، والمرفوضة هي رجعة المتطلبين إياها استدراكاً لما كفروا، سواء أكانت من البرزخ كما في آيات، أم من القيامة كما في أخرى وهذه منها.

---

(١) نور الثقلين ١: ٧٠٩ في عيون الأخبار بإسناده إلى الحسين بن بشار عن أبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام قال: سألته أيعلم الله الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف يكون؟ فقال: إن الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء قال عزوجل: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩] - وقال لأهل النار: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨] - فقد علم الله عزوجل أنه لو ردهم لعادوا لما نهوا عنه.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

(٤) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.